بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى -في هذه السورة الكريمة سورة البقرة: (كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) (143)

(كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) أي: مثل هذا الجَعْل الذي جعلْنا لكم، وهو هدايتُكم إلى أفضلِ قِبلة، جعلناكم أيضًا خيرَ الأمم وأعدلَها، وسطًا بيْن الإفراط والتفريط، وبين الغلوّ والجَفاء. موسوعة التفسير

قال ابن كثير: يقول تعالى: إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم، عليه السلام واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم، والوسط ههنا الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً، أي: خيرها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر، وفي القرآن (قَالَ أَوْسَطُهُمْ) أي: أعدلهم وخيرهم.

وسط في الإيمان والعقيدة، فالإسلام دين وسط بين الإلحاد وتعدد الآلهة، فهناك من أنكروا وجود الإله الحق، وهناك من أسرفوا فعددوا الآلهة، هذا الطرف مخطئ وهذا الطرف مخطئ، أما نحن المسلمين فقلنا لا إله إلا الله وحده لا شريك له واحد أحد، فرد صمد.

وقال السعدي: وما عدا الوسط، فأطراف داخلة تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة، وسطاً في كل أمور الدين.

وسطاً في الأنبياء: بين من غلا فيهم، كالنصارى، وبين من جفاهم، كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك.

ووسطاً في الشريعة: لا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارى.

وفي باب الطهارة والمطاعم: لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم الطيبات، عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئاً، ولا يحرمون شيئا، بل أباحوا ما دب ودرج، بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجلها، ومن الأعمال أفضلها.

ووهبهم الله من العلم والحلم، والعدل والإحسان، ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا (أُمَّةً وَسَطًا) السعدي.

وهذا يدل على فضيلة هذه الأمة، ومن فضائلها:

كما قال تعالى :(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) (آل عمران: 110).

وعن معاوية بن حَيْدَةَ القُشَيريّ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال :(أنتُم تُوفُون سَبعينَ أُمَّةً، أنتُم خيرُها وأكرمُها على الله).صحيح الترمذي

وعن أبي سَعيد الخُدريّ رضي الله عنه، قال: قرأ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا قال: عدلًا).رواه بخاري

وعن أبي سعيدٍ الخُدريّ رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال :(يجيء النبيُّ يومَ القيامة، ومعه

الرَّجل، والنبيُّ ومعه الرَّجُلان، وأكثرُ مِن ذلك، فيُدعى قومُه، فيُقال لهم: هل بلَّغكم هذا؟ فيقولون: لا! فيُقال له: هل بلَّغتَ قومَك؟ فيقول: نعم، فيُقال له: مَن يَشهد لك؟ فيقول: محمَّد وأمَّتُه، فيُدْعَى وأُمَّته، فيُقال لهم: هل بلَّغ هذا قومَه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما عِلمُكم؟ فيقولون: جاءَنا نبيُّنا، فأخبَرنا: أنَّ الرُّسل قد بلَّغوا، فذلك قوله :(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا]البقرة: 143 قال: يقول: عدلًا، لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا]البقرة: 143). صحيح ابن ماجه الدرر السنية

وقال صلى الله عليه وسلم (خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ...) صحيح بخاري

وقال صلى الله عليه وسلم (نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَومَ القِيامَةِ ...) صحيح بخاري.

وقوله صلى الله عليه وسلم (عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فأخَذَ النبيُّ يَمُرُّ معهُ الأُمَّةُ، والنبيُّ يَمُرُّ معهُ النَّفَرُ....، الحديث وفيه: فَنَظَرْتُ فإذا سَوادٌ كَثِيرٌ، قالَ: هَؤُلاءِ أُمَّتُكَ، وهَؤُلاءِ سَبْعُونَ ألْفًا قُدّامَهُمْ لا حِسابَ عليهم ولا عَذابَ) صحيح بخاري

وقال صلى الله عليه وسلم (وجُعِلتْ أمَّتي خيرَ الأمَمِ) رواه أحمد.

✉قال سعيد مصطفى ذياب: فأنت تنتسب إلى خير أمة في عقيدتها، وعبادتها، ورسولها، وأجورها، أعطانا الله إذ حَرَمَ الناسَ، وتجاوزَ عنا فيما شَدَّدَ فيه على غَيرِنَا . قَالَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَاليَهُودُ وَالنَّصَارَى كَرَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عُمَّالًا، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، ثُمَّ عَمِلَتِ النَّصَارَى عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، ثُمَّ أَنْتُمُ الَّذِينَ تَعْمَلُونَ مِنْ صَلاَةِ العَصْرِ إِلَى مَغَارِبِ الشَّمْسِ عَلَى قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ»، فَغَضِبَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا وَأَقَلُّ عَطَاءً، قَالَ: «هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئًا؟» قَالُوا: لاَ، فَقَالَ: «فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ». رواه البخاري
✉وانتسابك لهذه الأمة المرحومة التي منها هؤلاء المصطفون الأخيار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابه، ليس باسمك ولا بنسبك ولا بحسبك، وإنما انتسابك لها باعتقادك، وعملك، وحسن خلقك، حتى تدخل في زمرتها، وتحشر يوم القيامة تحت لواءها، وتنالك شفاعة نبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) أي: جعَل الله تعالى هذه الأمَّةَ المحمديَّةَ خيرَ الأُمم وأعدَلَها؛ ليشهدوا على الأُمم الأخرى بأنَّ رُسلَهم وأنبياءَهم عليهم الصَّلاة والسلام قد بلَّغوهم رِسالة ربِّهم عزَّ وجلَّ.موسوعة التفسير

كما قال تعالى :(هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) (الحج: 78)

✉قال سعيد مصطفى ذياب: لما كانت هذه الأمة أشرفَ الأممِ وأكرَمَها على الله تعالى، جعلهم الله تعالى شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يشهدون للرُّسُلِ أنهم قَدْ بَلَّغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ، وأدوا الأمانةَ، ونصحوا لأقوامهم، حين يقول قومُ كلِ رسولٍ: مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ؛ وعن أبي سَعِيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال :(يُدعَى نوحٌ يومَ القِيامة، فيقول: لبَّيْك وسَعديك يا ربِّ، فيقول: هل بلَّغتَ؟ فيقول: نعمْ، فيُقال لأمَّته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير! فيقول: مَن يشهد لك؟ فيقول: مُحمَّدٌ وأمَّتُه، فيَشهدون أنَّه قد بلَّغ، ويكون الرَّسولُ عليكم شهيدًا؛ فذلك قولُه جلَّ ذِكرُه :(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)، والوسط: العدْل). رواه بخاري

✉مع ذلك فمن الناس من يُمْنَعَ من الشهادةِ ويُسْلَبَ هذا الشرفَ العظيم، وذلك بذنب يتهاون فيه كثير من الناس، وذلك الذنب هو اللعن؛ فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رواه مسلم
✉ومن شناعة هذا الذنب كذلك -أعني اللعن -أنه من أعظم أسباب دخول النار، ومما يؤسف له أن كثيرًا جدًا من النساء يقعن فيه، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ» فَقُلْنَ: وَبِمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ». رواه البخاري ومسلم

✉فاحرص يارعاك الله أن تلقى الله تعالى، وقد سلم لسانك من السب والشتم واللعن، فإن لعن المعين لا يجوز ولو كان كافرًا، إلا من لعنه الله أو لعنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

⇦وعن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه، قال :(مَرُّوا بجَنازةٍ فأثنَوْا عليها خيرًا، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: وَجَبَتْ، ثم مَرُّوا بأخرَى فأثنَوا عليها شرًّا، فقال: وَجَبَتْ، فقال عُمَرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه: ما وَجَبَتْ؟ قال: هذا أثنَيتُم عليه خيرًا، فوَجَبَتْ له الجنةُ، وهذا أثنَيتُم عليه شرًّا، فوَجَبَتْ له النارُ؛ أنتم شُهَداءُ اللهِ في الأرضِ) رواه بخاري

قال الطبري: ووصفت أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالوسط، لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذي غلوا بالترهب وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها.

(وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) أي: يَشهد محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ على صِدق الأمَّة فيما أخبَرت به عن تبليغ رُسُل الله تعالى رِسالتَه إلى أُممهم، وقيل: يَشهد محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنَّه بلَّغ أمَّته رسالةَ ربِّه، وقيل: يشهد بأنَّهم آمنوا به وبما جاء به من عند الله عزَّ وجلَّ.موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: لم يبين هنا هل هو شهيد عليهم في الدنيا أو الآخرة؟ ولكنه بين في موضع آخر أنه شهيد عليهم في الآخرة، وذلك في قوله (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرسول ...).

(وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ) أي: إنَّما شرَعْنا لك يا محمَّد التوجُّه أولًا إلى بيت المقدِس، ثمَّ صرَفْنا هذه القِبلة عنك إلى الكَعبة؛ امتحانًا؛ لنعلم-عِلمًا تقوم به الحجة على العبد، ويترتَّب عليه الثوابُ والعِقاب-من سيطيعك فيستقبل معك حيثما توجَّهت، ممن يَرتدُّ عن دِينه.موسوعة التفسير

وهي بيت المقدس ، كما روى البخاري عَنِ الْبَرَاءِ (أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ - أَوْ قَالَ أَخْوَالِهِ - مِنَ الأَنْصَارِ ، وَأَنَّهُ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْراً، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْراً، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلاَةٍ صَلاَّهَا صَلاَةَ الْعَصْرِ ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ ، وَهُمْ رَاكِعُونَ فَقَالَ أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قِبَلَ مَكَّةَ ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ ، وَكَانَتِ الْيَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ إِذْ كَانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ ، فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ الْبَيْتِ أَنْكَرُوا ذَلِكَ . قَالَ زُهَيْرٌ حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ فِي حَدِيثِهِ هَذَا (أَنَّهُ مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ رِجَالٌ وَقُتِلُوا، فَلَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ)

قوله تعالى (إِلَّا لِنَعْلَمَ ...) المراد علماً يترتب عليه الثواب والعقاب، فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس. اللهيميد

قال الشنقيطي : ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه ، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيراً ، بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون ، وقد بين أنه لا يستفيد بالاختبارعلماً لم يكن يعلمه بقوله جل وعلا (وَلِيَبْتَلِيَ الله مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور) فقوله (والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور) بعد قوله (وَلِيَبْتَلِيَ) دليل قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئاً لم يكن عالماً به ، ... ومعنى (إِلاَّ لِنَعْلَمَ) أي علماً يترتب عليه الثواب والعقاب فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك ،وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس ،أما عالم السروالنجوى فهوعالم بكل ما سيكون،كما لا يخفى.

وقال الشيخ ابن عثيمين: المراد علم ظهور أو علم يترتب عليه الجزاء، لأن علم الله الكائن في الأزل لا يترب عليه الجزاء حتى يُمتحن العبد ويُنظر.

وعلم الوقوع هذا هو العلم الذي يترتب عليه الجزاء، فإن الله لا يحاسب خلقه بناءً على ما علم منهم أنهم سيعملونه قبل أن يعملوه، الله يعلم أن فلان سيفعل المعصية الفلانية، في الوقت الفلاني، في المحل الفلاني، لكنه لم يكتبها عليه سيئة حتى يعملها، فهذا هو العلم الذي يترتب عليه الجزاء.خالد السبت

ومثل هذه الآية قوله تعالى (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) وقوله تعالى (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) وقوله تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ}. سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآية/ 143

قال سعيد مصطفى ذياب: شأن العبد مع مولاه الطاعة المطلقة، والاستجابة الدائمة، في المنشط والمكره، في العسر واليسر.

✉احذر أن تتقدم بين يدي مولاك، فإن دين الله تعالى لا يقبل اقتراح مقترح، ولا انتقاد منتقد، ولا زيادة زائد، "اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم." {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}. سُورَةُ الْحُجُرَاتِ: الآية/ 1

✉واحذر أن تعرض الدين على عقلك، فما استساغه قَبِلتَه، وما أنكره رَدَدتَه، فإن هذا ليس شأن العبدِ مع سيدِه.

فإن الله جل وعلا قال لنبيه وخير خلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ}. سورة آل عمران: الآية/ 128

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ}. سورة آل عمران: الآية/ 154

وَقَالَ تَعَالَى: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ}. سورة الرَّعْدِ: الآية/ 40

✉وإنما تظهر عبوديتك لله تعالى، في امتثالك لأمره مهما أمرك، واجتنابك لنهيه مهما زجرك، ألم تسمع ما قاله سيدك عمن سقطوا في اختبار العبودية؟

قَالَ تَعَالَى: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}. سورة النِّسَاءِ: الآية/ 66-68

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا لَكَ شَكَّارِين، لَكَ ذَكَّارِين، لَكَ رَهَّابِين، لَكَ مِطْوَاعِين، إِلَيْكَ مُخْبِتِين، لَكَ أَوَّاهِين مُنِيبِين.

(وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)(143)

(وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً) أي: وإن كان الشَّأْن أنَّ واقعة صرْفِنا لك يا محمَّد عن التوجه إلى بيت المقدس، وتوليتنا إيَّاك للكعبة، أمرٌ عظيمٌ، شاقٌّ، وثقيلٌ على النُّفوس، عدَا مَن أرشده الله تعالى للحقِّ، ووفَّقه للعمل به، فصَدَّق الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وتأسَّى به في التحوُّل إلى الكعبة.موسوعة التفسير

☜كل أمر من الله يكون شاق على كل عبد الا من زاد الايمان في قلبه، وصدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فتهون عليه التكاليف والاوامر، ويتعبد الله بالتقرب اليه، بالاستسلام والانقياد والقبول، دون جدال ومراء، وقول حتى اقتنع، فكيف يتجرأ العبد على ربه، ويحاججه في تشريعاته، ولله الامر من قبل ومن بعد لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون.

✉قال سعيد مصطفى: بعض الناس أحكام الشرع كبيرة جدًا عليه، وثقيلة جدًا على قلبه، إذا أثيرت شبهةٌ عن الإسلام أمامه طأطأ رأسه، واعتراه الخجل، وبادر بإنكار هذا الحكم، والبراءة منه، منهزم نفسيًا، يخجل من إظهار دينه، ويتمعر وجهه لو وصف بالتدين، وتثور ثائرته إذا سمع من يدعو إلى تطبيق شرع الله، يريد إسلامًا لا وجود له إلا في ذهنه، وأذهان من ينظر إليهم بإكبار من المستشرقين، يريد إسلامًا لا يعدو الصلاة، والصيام، والحج، ومكارم الأخلاق، إسلامًا لا وجود له إلا في المسجد.

✉أما أن يحكم حياة الناس ومعاملاتهم، أو يضبط حياة الفرد والمجتمع، أو يحول بين الناس وبين المحرمات، أو يؤمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر، فهذا ما لا يقبله، ولا يرتضيه.

✉أما الذين هداهم الله، فيرون الإسلام عزًا لا ذل فيه، وشرفًا دونه كل شرف، وكمالا لا نقص فيه، يرفعون به رؤوسهم، وتسمو به نفوسهم، لا يفرقون بين أحكامه، ولا يفرطون في شيء من تعاليمه.

✉فاحذر أن ترى شيئًا من أحكام الله كبيرًا عن أن تمتثله، واحذر أن تضيق نفسك بشيء من دين الله.

فقد قَالَ تَعَالَى: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}. سورة النِّسَاءِ: الآية/ 65

وفي الحديث: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ». رواه ابن أبي عاصم

(إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ) قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول ، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه ، وأن الله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك بخلاف الذين في قلوبهم مرض ، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق ، كما قال تعالى (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) (125)التوبة .ابن كثير

أن صرف القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام أمر كبير وحدث عظيم، ليس من السهل التسليم به وقبوله إلا على من هداهم الله من أهل الإيمان واليقين. اللهيميد

عن عبد الله بنِ عُمرَ رضي الله عنهما، قال :(بَيْنا النَّاسُ بقُباءٍ في صلاةِ الصُّبحِ، إذ جاءهم آتٍ، فقال: إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد أُنزِلَ عليه الليلةَ قرآنٌ، وقد أُمِرَ أن يَستقبِلَ الكعبةَ، فاستقبِلوها، وكانتْ وجوهُهم إلى الشَّأمِ، فاستَداروا إلى الكَعبةِ) رواه بخاري

وعن أنسٍ رضي الله عنه :(أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان يُصلِّي نحو بيت المقدِس، فنزلت :(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) (البقرة: 144)، فمرَّ رجلٌ من بني سَلِمة وهم ركوعٌ في صلاة الفجر، وقد صلَّوا ركعةً، فنادى: ألَا إنَّ القِبلة قد حُوِّلت، فمالوا كما هم نحوَ القِبلة). رواه مسلم

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) أي: إنَّ الله تعالى يقول عن نفسه بأنَّه لا ينبغي له أن يُضيع ثوابَ صلاتكم إلى بيت المقدس قَبل ذلك، بل هو محفوظٌ عنده سبحانه وتعالى. موسوعة التفسير

وقال ابن كثير: أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوابها عند الله كما جاء في الحديث السابق عن البراء قال (أَنَّهُ مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ رِجَالٌ وَقُتِلُوا، فَلَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) فجمهور المفسرين فسروا (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) أي: صلاتكم.

قال الشيخ سليمان اللهيميد: ولقد مات أناس من المؤمنين وهم يصلون إلى بيت المقدس فقام المشككون وقالوا صلاتهم غير مقبولة ورد الله سبحانه بقوله: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} لأن الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس كانوا مطيعين لله مؤمنين به فلا يضيع الله إيمانهم.

قال السعدي: أي: ما ينبغي له ولا يليق به تعالى، بل هي من الممتنعات عليه، فأخبر أنه ممتنع عليه، ومستحيل، أن يضيع إيمانكم، وفي هذا بشارة عظيمة لمن مَنَّ الله عليهم بالإسلام والإيمان، بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم، فلا يضيعه، وفي هذه الآية، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح.

وقوله تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)** أي: إنَّ الله تعالى عظيم الرَّحمة بالنَّاس؛ ولذا لا يُمكن أن يُضيع أجرَ طاعة عمِلها عبادُه المؤمنون.موسوعة التفسير

فإنّ –هنا-تدل على التوكيد، وفي نفس الوقت تشعر بالتعليل، والرأفة إذا فسرناها بشيء من التوسع في التعبير قلنا: هي الرحمة، وإذا أردنا أن نفرق ونذكر ما تفترق به الرأفة عن الرحمة، نقول: الرأفة نوع من الرحمة، بعض أهل العلم يقول: أكبر وأشد من الرحمة.خالد السبت

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كُلَّما وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها، وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها، فقال رسول الله ﷺ :أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على ألا تطرحه؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال :فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها.رواه مسلم

وقال ابن كثير: أي تذكروا أنكم تؤمنون برب رءوف لا يريد بكم مشقة رحيم يمنع البلاء عنكم.

قال الطبري: إن الله بجميع عباده ذو رأفة، والرأفة أعلى معاني الرحمة.

قال الشيخ سليمان اللهيميد: إذن كل ما شرع الله سبحانه وان وجدت المشقة فيه، فيجب ان نوقن بأن الله لم يأمر بأمر الا رحمة بعباده وحكمة، ولم ينهى عن أمر الا رحمة بعباده وحكمة، ولا يأتي البلاء الا بسبب مخالفة أوامره، والاستكبار على الشرعه، والا فصمام الامان والرحمة والرأفة، في أحكامه وتشريعاته، فانظروا في الانهيار الاقتصادي لمن تعامل بالربا، وابناء الزنا لمن تعدى بالاختلاط، والجرائم لشاربين الخمر، لن تجد الرأفة إلا في طاعته والانقياد لاحكامه، لأنه رؤوف رحيم.

ومن رأفته سبحانه وتعالى: أنه لا يضيع لعباده طاعة أطاعوه بها فلا يثيبهم عليها، فمن مات قبل تحويل القبلة لهم ثوابهم وأجرهم.

ومن رأفته سبحانه وتعالى بنا: أنه خوفنا من عقوبته وعذابه، ونهانا عن معصيته، قبل أن يلقاه العبد يوم القيامة ليستعد للقائه، ويتجنب سخطه وغضبه (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) [آل عمران: 30].

ومن رأفته: أنه أرسل رسله وأنزل كتبه التي تبين شرعه، لينقذ الناس من ظلمات الشرك والجاهلية إلى نور التوحيد والهداية (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (9) الحديد

ومن رأفته: أنه يقبل توبة التائبين، ولا يُرد عن بابه العاصين المنيبين، مهما كثرت سيئاتهم، وتعاظمت خطيئاتهم (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (117) التوبة

ومن رأفته: تسخيره لما في السماوات وما في الأرض لمصلحة الإنسان ومنفعته، وخلقه الأنعام ليركب على ظهرها فتحمله المسافات الشاسعة، هو ومتاعه وزاده (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) (7) النحل.

(رَحِيمٌ)هو ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة، كما في قوله تعالى: {...وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب:43]، فخص برحمته عباده المؤمنين.

⇦الرحيم اسم من أسماء الله، فيجب إثبات ذلك، وهو متضمن لصفة الرحمة الواسعة كما قال تعالى (إن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ...)147 الانعام وقال تعالى (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

قال سفيان، قال أبو بكر الهذلي: فلما نزلت: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) قال إبليس: أنا من الشيء. فنزعها الله من إبليس، قال (فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) فقال اليهود: نحن نتقي ونؤتي الزكاة، ونؤمن بآيات ربنا. فنزعها الله من اليهود، فقال:(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ...) الآيات كلها. قال: فنزعها الله من إبليس ومن اليهود وجعلها لهذه الأمة.

نعلم عن الله انه ارحم بنا من أمهاتنا ولا نستسلم لأمره ونهيه، ولا نسارع في طاعته، ونطيع أنفسنا والشيطان هذا العجيب.

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) 144

سبب النُّزول: عن البَراء بن عازبٍ رضي الله عنه، قال :(كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ صلَّى نحوَ بيت المَقدِس سِتَّة عشرَ أو سَبعةَ عشرَ شهرًا، وكان رسولُ الله صلَّى الله عليه

وسلَّمَ يحبُّ أن يُوجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فتوجَّه نحو الكعبة، وقال السُّفهاء من النَّاس- وهم اليهود :- (مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، فصلَّى مع النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ رجلٌ، ثم خرَج بعدما صلَّى، فمرَّ على قومٍ من الأنصار في صلاة العصر نحوَ بيت المقدس، فقال: هو يَشهدُ أنَّه صلَّى مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأنَّه توجَّه نحوَ الكعبة، فتحرَّف القوم حتى توجَّهوا نحوَ الكعبة)رواه بخاري

(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ) أي: يُؤكِّد الله تعالى لنبيِّه محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ رُؤيتَه له وهو يتلفَّت محوِّلًا وجهَه في جِهات السماء؛ متلهِّفًا لنزول الوحي بخبَر تحويل القِبلة إلى الكعبة.موسوعة التفسير

✉إثبات صفة العلو لله فقد كان النبي ﷺ ينتظر الوحي فيرفع رأسه إلى السماء، وعلو الله -تبارك وتعالى-على عرشه صفة ثابتة في الكتاب والسنة. خالد السبت

(قد) إذا دخلت على المضارع منسوباً إلى الله، فإن ذلك يعني المبالغة في التحقيق. خالد السبت

✉هذا يدل على ترقب مستمر من قِبل النبي ﷺ حيث كان -عليه الصلاة والسلام-يُرجي أن تحول القبلة، فإن توجهه إلى بيت الله الحرام أحب إليه من التوجه إلى بيت المقدس (قَدْ نَرَى) وهذا يدل على إثبات صفة الرؤية والبصر لله. خالد السبت

قال سليمان اللهميد: أي: قد رأينا ذلك (تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ) أي: توجهك بوجهك وبصرك إلى السماء حال الدعاء، تنظر إليها، وتنتظر أمر الله لك ووحيه إليك، بتحويل القبلة إلى الكعبة.

قال ابن عباس: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه بضعة عشر شهراً، وكان يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء فأنزل الله (قد نرى ... إلى قوله: فولوا وجوهكم شطره) (تفسير ابن كثير).

(فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا) أي: فلنوجهنَّك يا محمَّد، إلى قِبلةٍ عظيمةٍ تطمئنُّ إليها، وتحبُّها، وتقبلها. موسوعة التفسير

✉ فدخول هذه الفاء للتعقيب لتأكيد الوعد (فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا) دخلت عليه هنا اللام الموطأة للقسم (فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا) وهذا فيه مزيد من التوكيد في تحققه ووقوعه فهو أمر لابد من حصوله؛ لأن القسم كما هو معلوم يؤكد مضمون الجملة المُقسم عليها. خالد السبت

✉فجاء الوعد، فيحصل للنفس من الانبساط والسرور والانشراح، ثم يأتي بعد ذلك الأمر بالتوجه إلى بيت الله الحرام فيكون ذلك إنجازًا لهذا الوعد فيتوالى الفرح والسرور والاستبشار على نفسه ﷺ ويكون ذلك التدريج آنس للنفس قبل أن يقع المطلوب فجأة. خالد السبت

⇦إثبات عظمة الله لقوله (فَلَنُوَلِّيَنَّكَ) فإن ضمير الجمع للتعظيم.

قوله تعالى (قِبْلَةً تَرْضَاهَا) وهي المسجد الحرام.

(تَرْضَاهَا) المراد بهذا الرضا رضا المحبة بالطبع، لا رضا التسليم والانقياد لأمر الله.فتح الرحمن شرح ما يلتبس من القران

قال الشيخ سليمان اللهيميد: فالعبد الصادق، ينقاد ويستسلم لأوامر ربه، وان كان لا يحب هذا الامر ويريد غيره، فالله عزوجل لما تلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أوامر ربه بالانقياد والاستسلام مع رغبته بغيره

وهو حبه للكعبة قبلة ابراهيم عليه السلام، ارضاه الله بما يحب، بعد سبعة عشر شهرا لحكمه وعلم، فحق على الله ان يرضي من يرضيه.

(فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أي: أقبِلْ ببدنِكَ، واصْرِفْ وجهَكَ لأجْلِ الصَّلاة، إلى جهةِ الكعبة من المسجد الحرام. موسوعة التفسير

⇦المراد بالشطر هنا: الناحية والجهة، والمراد بشطر المسجد: الكعبة

إن المسجد هو مكان السجود ونظراً لأن السجود هو منتهى الخضوع لله فسمي المكان الذي نصلي فيه مسجدا.

(وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) أي: وفي أيِّ موضعٍ وَجِهةٍ كنتم-أيُّها المؤمنون-فعليكم أن تستقبلوا الكعبةَ وتتوجَّهوا ناحيتَها عند إرادة الصَّلاة. موسوعة التفسير

قال الشيخ سليمان اللهيميد: بهذا الخطاب والأمر له صلى الله عليه وسلم ولأمته، حولت القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، ونسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة.

قال القرطبي: وكان أول صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة صلاة العصر، كما في حديث البراء، وروي أن أول صلاة صلاها إلى الكعبة صلاة الظهر، وكان ذلك في منتصف رجب، وقيل في منتصف شعبان.

قال ابن كثير: أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر، فإنه يصليها حيثما توجه قالبه وقلبه نحو الكعبة، وكذا في حال المسايفة في القتال يصلي على كل حال، وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده وإن كان مخطئاً في نفس الأمر، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

قال الرازي: قوله تعالى (وُجُوهَكُمْ) المراد من الوجه ههنا جملة بدن الإنسان لأن الواجب على الإنسان أن يستقبل القبلة بجملته لا بوجهه فقط والوجه يذكر ويراد به نفس الشيء لأن الوجه أشرف الأعضاء ولأن بالوجه تميز بعض الناس عن بعض، فلهذا السبب قد يعبر عن كل الذات بالوجه.

فإن قيل: هل في الآية الكريمة تكرار؟ هذا ليس بتكرار، وبيانه من وجهين:

أحدهما: أن قوله تعالى (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) خطاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم لا مع الأمة، وقوله (حيثمَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) خطاب مع الكل.

وثانيهما: أن المراد بالأولى مخاطبتهم وهم بالمدينة خاصة، وقد كان من الجائز لو وقع الاختصار عليه أن يظن أن هذه القبلة قبلة لأهل المدينة خاصة، فبين الله تعالى أنهم أينما حصلوا من بقاع الأرض يجب أن يستقبلوا نحو هذه القبلة.

(وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ) أي: إنَّ اليهود والنَّصارى يَعلمون مِن كتُبهم أنَّ استقبال النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمؤمنين الكَعبةَ، أمرٌ حقٌّ، قد فرَضه الله سبحانه. موسوعة التفسير

قال الشيخ سليمان اللهيميد: أي أن الذين أوتوا الكتاب يعلمون أن رسول الله هو الرسول الخاتم ويعرفون أوصافه التي ذكرت في التوراة والإنجيل ويعلمون أنه صاحب القبلتين ولو لم يتجه الرسول صلى الله عليه وسلم من بيت المقدس إلى الكعبة لقالوا إن التوراة والإنجيل تقولان إن الرسول الخاتم محمداً صلى الله عليه وسلم يصلي إلى قبلتين فلماذا لم تتحقق؟ ولكان هذا أدعى إلى التشكيك، فكأن هذا التحويل بالنسبة لأهل الكتاب تثبيت لإيمانهم بالرسول عليه الصلاة والسلام وليس سببا في زعزعة اليقين .

(وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)) أي: إنَّ الله تعالى ليس بساهٍ عمَّا يعمل هؤلاء الذين يَعلمون الحقَّ، ويُنكرونه ولا يَتَّبعونه؛ فما يَعملونه من سوءٍ محفوظٌ عند الله تعالى؛ ليعاقبَهم عليه، وبالضدِّ؛ يَحفَظ للمؤمنين امتثالَهم لأوامره، فيُجازيهم بذلك. موسوعة التفسير

(وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) (145)

(وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ) أي: والله لئن جِئتَ يا محمَّدُ، اليهودَ والنَّصارى بكلِّ برهان، وأقمتَ عليهم كلَّ حُجَّةٍ تُثبت أنَّ الحقَّ هو ما جِئتَهم به، من وجوب التحوُّل من قِبلة بيت المقدِس في الصَّلاة إلى التوجُّه شَطرَ المسجد الحرام، فلن يَتركوا أهواءَهم، ويتَّبعوك في ذلك. موسوعة التفسير

(وَلَئِنْ أَتَيْتَ) [سورة البقرة:145] اللام هنا هي لام القسم، أو موطئة للقسم، كأنه يقول: والله لئن أتيتهم بكل حجة وبرهان فإنه لا يغير ذلك من حالهم شيئاً، لن يتبعوا قبلتك، فإذاً لا تكترث بهم، ولا تشتغل بهم، ولا تنظر إلى خواطرهم، أو استمالة قلوبهم؛ لأن هؤلاء لن يوافقوك على ذلك. خالد السبت

⇦لأن اليهود لا يبحثون عن دليل ولا يريدون الاقتناع فقط يكابرون، فعنادهم ومخالفتهم مع ما يعرفونه من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه لو قام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به فلن يتبعوه ويتركوا أهواءهم.

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) (97) يونس

⇦وفائدة إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بذلك: إراحة قلب النبي صلى الله عليه وسلم وإبعاد الشغل والفكر في هؤلاء عنه، أي: لا تشتغل بهم ولا تفكر فيهم.

قال سعيد مصطفى: قلما ينغمس إنسان في الباطل ثم ينجو منه، والسبب أن حبَ الباطل تغلغلَ في كيانه، وأشربة قلبُهُ، وامتدت جذور ذلك الباطل فيه، حتى صَعُبَ قلعُها، وعَسُرَ نزعُها، فيرى الآياتِ البيناتِ، والدلائلَ الواضحاتِ، والمعجزاتِ الباهراتِ، فلا تحرك فيه ساكنًا، ولا تثير فيه كامنًا؛ لأنه أبعد الناس عن الهدى، كما قال الله تعالى: {قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا}. سُورَةُ مَرْيَمَ: الآية/ 75

وكما قال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}. سُورَةُ التوبةِ: الآية/ 125

أليس قد قيل: (حبك الشيء يُعمي ويُصم)؟ فكيف إذا كان هذا الشيء كفرًا؟ لا يبصر صاحبه نور الإيمان، وهو أشدُّ سطوعًا من الشمس، وأكثرُ وضوحًا من النهار، وصدق القائل: (كم من بصيرٍ قلبُهُ أعمى).

اللهم إنا نسألك إيمانا كاملا، ويقينًا صادقًا.

(وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ) يُنزِّه الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ عن متابعة قِبلة اليهود أو النَّصارى، ويُخبر عن شدَّة متابعتِه لِمَا أمره الله تعالى به؛ فكما أنَّهم مستمسِكون بأهوائهم، فلا اليهوديُّ يتَّبع قِبلة النصرانيِّ، ولا النصرانيُّ يتَّبع قِبلة اليهوديِّ، فهو أيضًا مستمسِكٌ بأمر الله واتِّباع مرضاته، ولا يتَّبع أهواءهم في جميع أحواله، كما أنَّه لا يُمكنه إرضاؤهم بحالٍ؛ لأنَّ الاختلاف فيما بينهم، واقع؛ ولذا فليس بغريبٍ منهم أنْ لا يتَّبعوا كذلك قِبلةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ.
وفي هذا تَسليةٌ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمؤمنين، وتثبيتٌ لهم على الحقِّ، وإنْ خالفهم مَن خالفَهم، وقطْعُ أطماع أهل الكتاب من متابعة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمؤمنين لقِبلتهم. موسوعة التفسير

(وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ)⇦ وإنما هو إخبار عن حال رسوله ﷺ، وثباته على أمر ربه، وقبوله هذه القبلة.خالد السبت

قال الشوكاني: هذا الإخبار يمكن أن يكون بمعنى النهي من الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم، أي: لا تتبع يا محمد قبلتهم، ويمكن أن يكون على ظاهره دفعاً لأطماع أهل الكتاب، وقطعاً لما يرجونه من رجوعه صلى الله عليه وسلم إلى القبلة التي كان عليها.

{وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ} ⇦ الله يخبرنا أن الخلاف في القبلة مستمر إلى يوم القيامة.

(وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ) أي: إن النصارى لا يتبعون قبلة اليهود، كما أن اليهود لا يتبعون قبلة النصارى، لما بينهم من العداوة والخلاف الشديد.

☜كما قال تعالى (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ)

(وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) حذَّر الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ-وأمَّته تبعٌ له في ذلك-مِن اتِّباع أهواء اليهود والنَّصارى، بالتوجُّه نحوَ قِبلتهم من بعد مجيء الحقِّ بالتوجُّه قِبل الكعبة؛ فإنَّه إنْ فعَل ذلك فهو معدودٌ مع الظَّالمين أنفسَهم بتَرْك الحقِّ، واتِّباع الباطل. موسوعة التفسير

(وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ) أي: ما يهوونه ويريدونه

⇦**والهوى:** هو الميل عن الحق والمخالفة له بلا دليل من شرع أو عقل، وهو ضد الهدى كما قال تعالى (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى)

قال السعدي: إنما قال: (أَهْوَاءَهُمْ) ولم يقل دينهم، لأن ما هم عليه مجرد أهوية نفس، حتى هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين، اتبع الهوى ولا محالة، قال تعالى (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

قال الطبري: أي: من بعد ما وصل إليك من العلم بإبلاغي إياك أنهم مقيمون على باطل وعلى عناد منهم للحق ومعرفة منهم أن القبلة التي وجهتك إليها هي القبلة التي فرضت على أبيك إبراهيم عليه وسلم وسائر ولده من بعده من الرسل التوجه نحوها.

(إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

قال الطبري: يعني: إنك إذا فعلت ذلك من عبادي الظلمة أنفسهم المخالفين أمري والتاركين طاعتي.

قال السعدي: وأي ظلم أعظم، من ظلم، من علم الحق والباطل، فآثر الباطل على الحق، وهذا وإن كان الخطاب له صلى الله عليه وسلم فإن أمته داخلة في ذلك، وأيضاً، فإذا كان هو صلى الله عليه وسلم لو فعل ذلك - وحاشاه-صار ظالماً مع علو مرتبته، وكثرة حسناته، فغيره من باب أولى وأحرى.

⇦هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته.

⇦وفي الآية تهديد ووعيد للعالم عن مخالفة الحق الذي يعلمه، فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره.

كما قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ...)5الجمعة

قال رسول الله ﷺ: (يُجَاءُ بالرَّجُلِ يَومَ القِيَامَةِ فيُلْقَى في النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أقْتَابُهُ في النَّارِ، فَيَدُورُ كما يَدُورُ الحِمَارُ برَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أهْلُ النَّارِ عليه فيَقولونَ: أيْ فُلَانُ ما شَأْنُكَ؟ أليسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بالمَعروفِ وتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ قالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بالمَعروفِ ولَا آتِيهِ، وأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وآتِيهِ) بخاري.

وحديث (أول من تسعر بهم النار ثلاثة، ... ومنهم: عالم تعلم العلم ليقال: عالم) رواه مسلم.

قال الشوكاني: وإن كان من أهل العلم والفهم المميزين بين الحق والباطل كان في اتباعه لأهويتهم ممن أضله الله على علم وختم على قلبه، وصار نقمة على عباد الله ومصيبة صبها الله على المقصرين، لأنهم يعتقدون أنه في علمه وفهمه لا يميل إلا إلى حق، ولا يتبع إلا الصواب، فيضلون بضلاله، فيكون عليه إثمه وإثم من اقتدى به إلى يوم القيامة .

قال سعيد مصطفى ذياب: العلم وحده لا يكفي للاستجابة للحق، ومناصرته، والدعوة إليه، اليهودُ كانوا يَعْرِفُونَ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، ومع ذلك كانوا أشد الناس عداءً له ولدينه، الأمر كله محض توفيق من الله تعالى.

اسأل الله عز وجل أن يوفقنا للحق، وأن يثبتا عليه اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه.